



الرحمة النبوية

دراسة تأصيلية



د. محمد بن عبد الله اللعبون

يهدى ولا يباع

حقوق الطبع متاحة لكل من يريد نشره خيرياً

يهدى ولا يباع
حقوق الطبع متاحة لكل من يريد نشره خيراً

المقدمة

الحمدُ لله ربَّ العالمين، الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فموضوع (الرحمة النبوية) من الموضوعات المهمّة؛ دعوةً وتربيةً، وقد كُتِبَ فيه- بحمد الله- كتابات كثيرة، وغالب تلك الكتابات تدور حول جمع الأمثلة والتطبيقات والنصوص، ولا شك في أهمية ذلك، إلا أن للموضوع زوايا أخرى تحتاج إلى معالجة وإبراز.

وهذا البحث يتناول إحدى تلك الزوايا والمداخل، وهي:
(إثبات فطرية الرحمة النبوية وكماها البشري).

إذ تفاوتت الناس في الاتصاف بخلقٍ من الأخلاق، ما بين مستقلٍ ومستكثر، أمرٌ ظاهر، ووجود أصل الخلق أمرٌ حسن، يشترك فيه الكثيرون، والتفاضل والتمايز إنما يكون في قوة التخلّق وتأثيره، وثبات الإنسان على مبادئه، والتزامه بأخلاقه، في جميع الأحوال والظروف.

وعليه؛ فإنّ هذا البحث ينطلق من فرضية:

أن خلق (الرحمة) خلق فطري أصيل، في شخصية الرسول ﷺ

ومكون أساس من مكوناتها، لها تأثير قوي وواضح في تصرفاته ومعاملاته ﷺ .

وأن الرسول ﷺ بلغ الكمال الإنساني في التخلق بها،

وإثبات صدق هذه الفرضية من خلال خمسة محاور:

- ١- طبيعة مهمته ﷺ، وعلاقة خلق الرحمة بنجاحه فيها.
- ٢- حضور خلق الرحمة في أحواله ﷺ كلها.
- ٣- تأثير خلق الرحمة في الأخلاق الأخرى.
- ٤- محبته ﷺ للرحمة وأهلها، وتشجيعه عليها.
- ٥- تأثير رحمته ﷺ فيمن حوله والمتعاملين معه.

وبحث موضوع الرحمة، من هذه الزاوية، له أهمية وألوية؛ تتمثل

فيما يأتي:

أ- أن إثبات أنه ﷺ مفطوراً على الرحمة، وأنها خلقه الطبيعي، ونال الكمال البشري فيها، يساعد على إقناع الآخرين، ويساهم في اختصار الأمثلة والشواهد التي يحتاج إليها في الاستدلال على عظيم رحمته وشمولها، وفي ردّ اعتراض الخصم بأن الأمثلة والشواهد إنما هي جزئية؛ أو وسيلة استخدمت لتحقيق مصالح آنية.

ب- أن البحث يهتم بأصل الموضوع، ويساهم في اختصار

الخطاب؛ فهو يناسب فئة مهمة، يستهدفها الحديث عن الرسول ﷺ

وأخلاقه^(١)، وهُم الجماهير الغريية، وبخاصة المثقفون منهم، ويذكر- أيضاً- المهتمين بموضوع نصره الرسول ﷺ؛ بتضمين هذا الأصل في خطابهم والبناء عليه.

ج- أنّ إثبات فطرية الرحمة وتصلها في نفس رسول الله ﷺ؛ فيه بيان فضله على الآخرين، وبخاصة من يفتخر بهم بعض أهل الأديان والمذاهب، وكذلك كماله البشري، وهو جانب يساهم في نصره الرسول ﷺ والدفاع عنه.

وبهدف هذا البحث- الموجز- إلى:

تجلية الرحمة النبوية وإبرازها في: أصلاتها وعمقها في تكوينه الشخصي ورسالته ﷺ، وفي سعتها وشمولها لمعانٍ أكثر وأكبر من العطف واللين^(٢)، وفي أهميتها لعمله، وفي تأثيرها الإيجابي عليه ﷺ وفي محيطه، وما ينبنى على ذلك من تحفيز على الاقتداء والتأسي به، وقبل ذلك: زيادة الإيمان به وتعميق الحب له ﷺ.

تنبيهات حول منهج البحث:

١- اقتصرْتُ على الأحاديث الصحيحة، وحرصت على اختيار ما ورد في الصحيحين، أو أحدهما.

(١) نظرًا لكثرة الإساءات التي يوجهها الإعلام الغربي للرسول ﷺ.

(٢) فهو ﷺ ورسالته، بما فيها من تكاليف وحدود، وما تتطلبه من جهد وجهاد، كلها رحمة، كما سيتبين في المبحث الأول.

٢- إذا كان الحديث من غير الصحيحين لم أتوسع في تخريجه، مراعاةً لمساحة البحث، وإنما اكتفيتُ بالعزو إلى بعض المصادر، ونقل حكم أحد الأئمة.

٣- إذا كان هناك اختلاف مؤثّر في الروايات؛ أُورد اللفظ الذي يناسب الموضوع، وأبين ذلك عند العزو للمصادر.

٤- عزوت أقوال الصحابة- رضي الله عنهم-، والتابعين- رحمهم الله- إلى المصادر المسندة.

٦- حرصت على نسبة الأقوال لأصحابها، وعزو ذلك إلى مصادره، وما تصرفت فيه أشرت إلى ذلك بعبارة: «بتصرف».

أسأل الله الكريم: أن يوفقنا لحسن القول والعمل..

والحمد لله رب العالمين.

تمهيد: في معنى الرحمة

قال ابن فارس: (رحم): الرأء والحاء والميم: أصلٌ واحد، يدلّ على الرقة والعطف والرأفة^(١).

وقال ابن منظور: الرحمة: الرقة والتعطف، والمرحمة مثله، وقد رحمته وترحمت عليه، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضاً، والرحمة: المغفرة^(٢).

وحكى ابن سيده: أصل الرحمة: النعمة....، قال الزجاج: وحقيقة الرحمة: الإنعام على المحتاج^(٣).

وقال الراغب الأصبهاني: الرحمة: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تُستعمل تارةً في الرقة المجردة، وتارةً في الإحسان المجرد عن الرقة^(٤).

وفي التعريفات: الرحمة: هي إرادة إيصال الخير^(٥).

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (٤٩٨/٢).

(٢) لسان العرب: مادة (رحم)، (٢٣٠/٢).

(٣) المخصص، لابن سيده، (٢٢٥/٥).

(٤) المفردات في غريب القرآن، ص ١٩١.

(٥) التعريفات، للرجزاني، (١٤٦/١).

يقول الشيخ عبد الرحمن الميداني: «من الأصول الخلقية وكلياتها العامة خلق الرحمة، ولهذا الأصل فروع أخلاقية متعددة، منها برّ الوالدين، ومنها صلة الرحم، ومنها إكرام اليتيم، ومنها العطف على الفقراء والمساكين والمرضى والخدم وذوي الحاجات والضعفاء والعجزة وذوي المصائب، ومنها التعاطف بين الإخوان والأصحاب والحيران، وبين المسلمين بوجه عام، ومنها الشفاعة الحسنة، ومنها لين الجانب للناس، ومنها العفو والصفح عن المسيء، ومنها مشاورة رئيس الجماعة وقائدهم وولي أمرهم لأهل المشورة منهم رحمةً بقلوبهم ونفوسهم التي يؤلمها الإهمال والاستبداد، إلى غير ذلك».

ويرى الشيخ عبد الرحمن: أنّ من العسير التوصل إلى تعريف دقيق للرحمة؛ لأنّ شأن الرحمة كشأن معظم العواطف والانفعالات، إنما تُدرك وتُعرف بظواهرها؛ لا بحقيقة تكوينها.

ويذكر أنّ: «الرحمة ذات مراتب ودرجات، ولها مستويات متفاوتات، قد يصل بعضها إلى أن يشعر الراحم بمثل مشاعر مَنْ يرحمه تمامًا، في النوع والمقدار»^(١).

* * *

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، (٢/٥-٦).



المبحث الأول
طبيعة رسالته ومهمته

صلى الله
عليه
وسلم

المبحث الأول: طبيعة رسالته ومهمته ﷺ



أرسل الله رسوله محمد ﷺ رحمة للعالمين، فهو في نفسه رحمة،
وشريعته رحمة، ودعوته رحمة، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور- رحمه الله-: «فجاءت هذه
الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد ﷺ، ومزيتها على سائر
الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين...
وصيغت بأبلغ نظم؛ إذ اشتملت هاته الآيه- بوجازة ألفاظها- على مدح
الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدح مُرسله تعالى، ومدح رسالته بأن
كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخَلقه...
وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخُلُق
الرحمة، والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

فأما المظهر الأول: ... (فقد) فُطر ﷺ على خُلُق الرحمة في جميع
أحوال معاملته الأمة؛ لتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يُلقى
إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة؛ حتى يكون تلقّيه الشريعة
عن انشراح نفس؛ أن يجد ما يُوحى به إليه ملائماً رغبته وخُلُقه ...
ولهذا خصَّ الله محمداً ﷺ في هذه السورة بوصف الرحمة، ولم يصف

به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله...

وأما المظهر الثاني من مظاهر كونه رحمةً للعالمين: فهو مظهر تصاريف شريعته؛ أي ما فيها من مقومات الرحمة العامّة للخلق كلهم؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ متعلّق بقوله: ﴿رَحْمَةً﴾...^(١).

ويؤكد الرسول ﷺ هذه الرحمة، في مواقف عديدة، منها:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قيل: يا رسول الله؛ ادعُ عليّ المشركين. قال: (إني لم أبعث لَعَانًا، وإنما بُعثتُ رحمة)^(٢).

ولمّا أمره الله تعالى بتخيير نسائه في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتَّعَنَّكُمْ وَأُتْرَقِحَنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا [٢٨] وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩]، بدأ بعائشة- رضي الله عنها-؛ فقال: (يا عائشة؛ إني أريدُ أن أعرض عليك أمرًا، أحبُّ أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك). قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك- يا رسول الله- أستشير أبوي؟! بل أختارُ الله ورسوله والدارَ الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأةً من نساءك بالذي قلتُ. قال: (لا تسألني امرأةً منهنّ إلا أخبرتها، إنّ الله لم يبعثني

(١) التحرير والتنوير، (١٧/١٢٦-١٢٢).

(٢) صحيح مسلم: ك البر والصلة والآداب/ باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، (ح ٢٥٩٧-٢٥٩٨/٤).

مُعْتَنًا وَلَا مُتَعَتَّنًا، ولكن بعثني مُعَلِّمًا مُبَسِّرًا^(١).

ومن أجل تحقق تلك الرحمة وتامها؛ جعل الله رسوله ﷺ ليِّنًا رؤوفًا رحيماً، وامتنَّ عليه وعلينا بهذه السجايا، التي هي سببٌ في نجاحه والاجتماع عليه، وفي قبول الحق والانقياد له، فقال سبحانه: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال الحسن البصري- رحمه الله:- (فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ): قال: «هذا خُلِقَ مُحَمَّدٌ، نَعْتَهُ اللَّهُ»^(٢).

وقال الإمام الربيع بن خثيم- رحمه الله:- (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ): «أي: والله قد طهره من الفظاظة والغلظة، وجعله رحيماً قريباً رؤوفاً بالمؤمنين»^(٣).

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور- رحمه الله:- «ودلَّ فعلُ المضِيِّ في قوله: (لَئِن لَّهُمْ): على أَنَّ ذلك وصفٌ تقرّر وعُرف من خُلِقَهُ،

(١) صحيح مسلم: ك الطلاق/ باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، (ح ١٤٧٨-١١٠٣/٢).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، (٨٠٠/٢).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم، (٨٠١/٢).

وَأَنَّ فِطْرَتَهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ بِرَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ؛ إِذْ خَلَقَهُ كَذَٰلِكَ، وَ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فخلق الرسول مناسباً لتحقيق حصول مراد الله تعالى من إرساله، لأنَّ الرسولَ يجيء بشريعةٍ يبلغها عن الله تعالى، فالتبليغ متعين لا مصانعة فيه، ولا يتأثر بخلق الرسول، وهو أيضاً مأموراً بسياسة أمته بتلك الشريعة، وتنفيذها فيهم، وهذا عملٌ له ارتباطٌ قوياً بمناسبة خلق الرسول لطباع أمته؛ حتى يلائم خلقه الوسائل المتوسّلة بها لحمل أمته على الشريعة الناجحة في البلوغ بهم إلى مراد الله تعالى منهم ...، أرسل محمد ﷺ مفضولاً على الرحمة، فكان لينه رحمةً من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل، وبرفق وإعانة على تحصيلها^(١).

وأما الآية الثانية؛ فيقول ابن كثير- رحمه الله-: «قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: أي: يعزّ عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشقّ عليها... وشريعته كلّها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾: أي: على هدايتكم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم»^(٢).

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي- رحمه الله-: «يتمنّ [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأُمّي الذي من أنفسهم، ...

(١) التحرير والتنوير، (٣/٢٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير، (٤/٢٤١).

وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم ... ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيحبّ لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشرّ، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾: أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم^(١).

وهو ﷺ أشفق علينا وأرحم بنا من أنفسنا، وقد ضرب لذلك مثلاً واقعياً مشاهدًا، فقال ﷺ: (إنما مثلي ومثلُ الناس: كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفَرَّاشُ وهذه الدّوابُّ التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزِعُهُنَّ وَيَغْلِبُنَّهُنَّ فيقتحمن فيها، فأنا آخِذٌ بِمُحْجَزِكُمْ عن النَّارِ، وأنتم تَقْحَمُونَ فيها!)^(٢) متفق عليه.

فهذا مثلٌ لاجتهاد نبينا ﷺ في نجاتنا، وحرصه على تخليصنا من الهلكات التي بين أيدينا، ولجهلنا بقدر ذلك، وغلبة شهواتنا علينا^(٣).

وفي الحديث: ما كان فيه ﷺ من الرأفة والرحمة، والحرص على

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ص ٣٥٦، وقال ابن الأثير في النهاية: «(رأف) ... في أسماء الله تعالى [الرؤوف] هو الرحيم بعباده العطوف عليهم بالطفاه. والرأفة أرق من الرحمة، ولا تكاد تقع في الكراهة، والرحمة قد تقع في الكراهة للمصلحة»، (٤٤٤/٢).

(٢) البخاري: ك الرقاق/ باب الانتهاه من المعاصي، (ح ٦٤٨٣ - فتح: ٣١٦/١١)، ومسلم: ك الفضائل/ باب شفقتة ﷺ على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، (ح ٢٢٨٤-١٧٨٩/٤). (مُحْجَزِكُمْ): جمع حِجْزَة، وهي معقد الإزار.

(٣) القرطبي، المفهم، (٧٨/٦)، وقال الزمخشري: «ولي عليه شفقة وشفق: رحمة ورقة وخوف من حلول المكروه به، مع نصح» (أساس البلاغة: ٥١٤/١)، ويرى الراغب الأصفهاني: أنّ الإشفاق لا ينفك من الرحمة. (المفردات في غريب القرآن: مادة: حقّ، ص ١٣٣).

نجاة الأمة^(١).

ولعظيم نصحه وشفقته؛ فقد جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فقال سبحانه: ﴿التَّيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية [الأحزاب: ٦]، وذلك لِمَا بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة؛ ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم، فرسول الله أعظم الخلق مَنَّةً عليهم^(٢).

وهذا ما لمسها الصحابة- رضي الله عنهم- وعاشوه، وشهدوا به، فعن أميمة بنت رُقَيْقَةَ- رضي الله عنها-؛ أنها قالت: أتيتُ النبيَّ ﷺ في نِسْوَةٍ من الأنصار نبايعه، فقلنا: يا رسول الله؛ نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا ننزي، ولا نأتي بِبُهْتَانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف، قال: (فيما استطعتن وأطقتن)، قالت: قلنا الله ورسوله أرحمُ بنا، هلّم نبايعك يا رسول الله! فقال رسولُ الله ﷺ: (إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمائة امرأةٍ كقولي لامرأةٍ واحدة. أو: مثل قولي لامرأةٍ واحدة)^(٣).


* * *

(١) ابن حجر، فتح الباري، (٣٨١/١١).

(٢) ابن سعدي، تفسير الكريم الرحمن، ص ٦٥٩.

(٣) رواه الترمذي: ك السير/ ب بيعة النساء، (ح ١٥٩٧-١٥١/٤)، وقال: حسن صحيح، والنسائي:

ك البيعة/ ب بيعة النساء، (ح ١٤١٨١-١٤٩/٧)، واللفظ له.



المبحث الثاني
التزام النبي ﷺ بخلق الرحمة
في أحواله كلها

المبحث الثاني: التزام النبي ﷺ بخلق الرحمة في أحواله كلها



من أبلغ الدلائل على أنّ رسولَ الله ﷺ مفضور على الرحمة، وأنها خلقه، كما قال الحسن البصري^(١) - رحمه الله-، التزامه واستصحابه لهذا الخلق في أحواله كلها: في الشدة والرخاء، والقوة والضعف، والرضا والغضب، والصحة والمرض، ومع الجميع: القوي والضعيف، الصغير قبل الكبير، الموافق والمخالف.

ودلائل حضور خلق الرحمة والتزامه بها في أحواله كلها ﷺ كثيرة جداً، منها:

١- في أعظم حال وموقف؛ جمع بين الجلال والأهوال والرغبة والرهبة؛ موقف القيام أمام ذي الجلال للفصل بين الخلائق، في المقام الذي تذهل فيه العقول والقلوب؛ وتتطلع كل نفس لنجاتها: يحدث الرسول ﷺ عن ذلك اليوم فيقول: (يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون

(١) تقدّم، ص ١١.

ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون مَنْ يشفع لكم إلى ربّكم؟ فيقول بعضُ الناس لبعض: اتنوا آدم! فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم؛ أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إنّ ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح^(١)...

فيأتوني فيقولون: يا محمد؛ أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنتلق، فأتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليّ، ويُلهمني، من محامده وحسن الشاء عليه، شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يُقال: يا محمد؛ ارفع رأسك، سلّ تعطّه، اشفع تُشفع. فأرفع رأسي فأقول يا ربّ! أمّتي أمّتي (...!) الحديث^(٢)، متفق عليه.

قال العلامة محمد بن خفيف الفارسي: «انظر: هل وصف الله عزّ وجلّ أحداً من عباده بهذا الوصف من الشفقة والرحمة التي

(١) وهكذا- أيضاً- يعتذر أولو العزم من الرسل: إبراهيم وموسى وعيسى- عليهم السلام.-

(٢) البخاري: ك أحاديث الأنبياء/ باب (ذرية من حملنا مع نوح...)، (ح ٤٧١٢-٤٨٤/٦)، مسلم: ك الإيمان/ ب أدنى أهل الجنة منزلة، (ح ١٩٤-١٨٤/١)، واللفظ له.

وصف بها حبيبه ﷺ؟! ألا تراه في القيامة- إذا اشتغل الناس بأنفسهم- كيف يدع حَدَثَ نَفْسِهِ ويقول: (أُمَّتِي أُمَّتِي)، يرجع إلى الشفقة عليهم، ويقول: إني أسلمتُ نفسي إليك، فافعل بي ما شئت، ولا تردني في شفاعتي في عبادك»^(١).

٢- في حالةٍ أخرى، تشابه الحالة السابقة، في اللحظات الأخيرة ورسول الله ﷺ يغادر هذه الدنيا، نجد أنّ من أهمّ ما يشغل باله ويستأثر باهتمامه؛ فئةٌ ضعيفة، يخشى عليها من الجور أو الإهمال وتضييع الحقوق، عن عليّ- رضي الله عنه- قال: (كان آخرُ كلام رسول الله ﷺ: الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم)^(٢).

٣- وفي موقفٍ آخر؛ نلاحظ فيه قوة حضور الرحمة والشفقة، ودقّة استحضار موجبها، عن صفية بنت حُييّ- رضي الله عنها- قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدّثته، ثم قمْتُ لأنقلب، فقام معي ليقلّبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرّ رجالان من الأنصار، فلمّا رأيا النبي ﷺ أسرعَا، فقال النبي ﷺ: (علي رسليكما، إنها صفية بنت حُييّ)!

فقالاً: سبحان الله! يا رسول الله!

(١) شعب الإيمان، للإمام البيهقي، (١٦٣/٢).

(٢) البخاري في الأدب المفرد/ ب حسن الملكة، (ح ١٥٨، ص ٦٧)، أبو داود: ك الأدب/ ب في حق الملوك، (ح ٥١٥٦، ٧٦١/٢)، ابن ماجه: ك الوصايا/ ب هل أوصى رسول الله ﷺ، (ح ٢٦٩٨،

٩٠١/٢)، وينظر: فتح الباري، (٣٦٢/٥).

قال: (إنَّ الشيطانَ يجري من الإنسانِ مجرى الدم، وإنِّي خشيتُ أن يقذف في قلوبكما شرًّا)، أو قال: (شيئًا)^(١) متفق عليه.

قال القاضي عياض - رحمه الله -: «هو إشفاقٌ منه على أمته، فقد كان بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، وخشيته من ظنهم به شيئًا فيهلكوا»^(٢).

٤- وفي موقفٍ اجتمعت فيه رزايا متعددة، تتعلق بشخصه الكريم ﷺ وبأتمته، حيث قُتل عددٌ من قادة المسلمين في غزوة مؤتة، فقد استشهد جبهُ زيد بن حارثة، وابن عمه جعفر بن أبي طالب، وشاعره عبد الله بن رواحة - رضي الله عنهم -؛ ومع شدة الرزية، وفي غمرة الانشغال بها وبآثارها؛ لا يغفل القلبُ الممتلئ رحمةً وشفقةً عن مراعاة مواطنها وأهلها، فعن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال: لَمَّا جاء نبي جعفر حين قُتل قال النبي ﷺ: (اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد أتاهم أمرٌ يشغلهم)، أو: (أتاهم ما يشغلهم)^(٣).

٥- ولأنَّ النبي ﷺ مفطور على الرحمة؛ فقد كان معروفًا بالرحمة ومشهودًا له بها حتى قبل البعثة، ففي حديث بدء الوحي؛ لما رجع

(١) البخاري: ك الاعتكاف/ ب هل يخرج المعتكف ...، (ح ٢٠٣٥-٢٧٨/٤)، مسلم: ك السلام/ ب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة كانت زوجته...، (ح ٢١٧٥-١٧١٢/٤).

(٢) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض، (٣٠/٧).

(٣) أبو داود: ك الجنائز/ ب صنعة الطعام لأهل الميت، (ح ٣١٣٢-٢١٢/٤)، الترمذي ك الجنائز/ ب الطعام يصنع لأهل الميت، (ح ٩٩٨٨-٣٢٢٣/٣)، وقال: حديث حسن صحيح، ابن ماجه: ك الجنائز/ ب ما جاء في الطعام يصنع لأهل الميت، (ح ١٦١٠-٥١٤/١).

الرسول ﷺ خائفاً، يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها-، فقال: (زملوني زملوني)، فزملوه حتى ذهب عنه الرُّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: (لقد خَشِيتُ على نفسي)، فقالت خديجة: (كلا والله! ما يُحْزِنُكَ اللهُ أبداً، إنك لَتَصِلَ الرَّحْمَ، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق)^(١) متفق عليه، فخديجة- رضي الله عنها- تذكّره بأفعاله وخصاله الحميدة، الدالة على عظيم رحمته وإحسانه؛ لثُطمئن قلبه؛ إذ الجزاء من جنس العمل.

٦- ويؤكد هذا عمّه أبو طالب، في لاميته المشهورة، فيقول:
وأبيض يُستسقى الغمامُ بوجهِهِ ثِمَالُ اليتامى عِصْمَةٌ للأرامل^(٢)
وعلى ضوء ما تقدّم:

فإنّ رحمة النبي ﷺ عملٌ فطري طبيعي؛ ظاهر في أحواله وتصرفاته ﷺ مع الجميع؛ يراها ويشعر بها كلّ مَنْ جالسه أو تعامل معه ﷺ^(٣).

(١) البخاري: ك بدء الوحي/ ب كيف كان بدء الوحي...، (ح-٣/٢٢١)، مسلم: ك الإيمان/ ب بدء الوحي، (ح-٢٥٢/١٣٩١)، واللفظ له.


(٢) البخاري: ك الاستسقاء/ ب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قنطوا، (ح-١٠٠٨/٢-٤٩٤)، قال ابن الأثير في النهاية: «الشمال - بالكسر - : المدجأ والغياث. وقال: هو المُطعم في الشدة» (١/٦٤٣)، وقال: «عصمة للأرامل: أي يمنعهم من الضياع والحاجة» (١/٦٤٣ - و ٤٨٩/٣).

(٣) بل ويشعر بها ويتفاعل معها من يقرأ سيرته الشريفة ﷺ.

فهذا مالك بن الحويرث- رضي الله عنه- ينفد هو ومجموعة من أقرانه، ومع أنهم شباب وضيوف؛ وجلسوا مدة قليلة، نجد أنّ الذي لفت انتباه مالك ولاحظه- في هذه الفترة الوجيزة- هو رحمة النبي ﷺ، فيقول:

أتينا رسول الله ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً، فظن أننا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا عمّن تركنا من أهلنا، فأخبرنا، فقال ﷺ: (ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، ثم ليؤمكم أكبركم)^(١) متفق عليه.

(١) البخاري: ك الأذان/ ب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة...، (ح٦٣١-١/١٢٨)، مسلم: ك المساجد/ ب من أحق بالإمامة، (ح٦٧٤-١/٤٦٥)، واللفظ له.



المبحث الثالث
تأثير الرحمة في أخلاقه
وأفعاله ومشاعره
ﷺ

المبحث الثالث: تأثير الرحمة في أخلاقه وأفعاله ومشاعره ﷺ



أولاً: تأثيرها في أخلاقه ﷺ:

للرحمة صلةٌ وثيقة بعددٍ من الأخلاق، تتضح من خلال التعريفات والدوافع، والرحمة تشتمل وتتضمن - كذلك - معاني الرقة والعطف والمغفرة والإحسان، وهي عوامل مؤثرة في أخلاقٍ متعددة، وحينما ننظر في سيرة الرسول ﷺ نجد أن تأصل خلق الرحمة في نفسه الكريمة ﷺ عاد بالتأثير الإيجابي على الأخلاق الأخرى، وأضرب لذلك أمثلة:

١- الحِلْم:

قال الإمام الماوردي: «وأسباب الحِلْم الباعثة على ضبط النفس عشرة: أحدها: الرحمة للجهال ...، وقد قيل في منشور الحكم: من أوكد الحِلْم رحمة الجهال»^(١).

وهذا السبب يكاد أن يكون هو الأظهر في كثيرٍ من مواقف الحِلْم التي في سيرة الرسول ﷺ، ومن الأمثلة على ذلك:

(١) أدب الدنيا والدين، للإمام الماوردي، ص ٢١١.

- عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: (كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبةً شديدة، حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مُر لي من مال الله الذي عندك! فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعتاء)^(١) متفق عليه.

٢- الرفق^(٢):

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابيٌّ فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ! قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تُزرموه، دَعُوهُ)، فتركوه حتى بال، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: (إنَّ هذه المساجدَ لا تصلحُ لشيءٍ من هذا البول ولا القدر، إنما هي لذكر الله عزَّ وجل والصلاة وقراءة القرآن)، أو كما قال رسول الله ﷺ، قال: (فأمرَ رجلاً من القوم، فجاء بدلوٍ من ماء فشَنَّهُ عليه)^(٣) متفق عليه.

(١) البخاري: ك فرض الخمس/ ب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم...، (ح) ٣١٤٩/٦-٢٥١٦، مسلم: ك الزكاة/ ب إعطاء من يسأل بفحش، (ح) ١٠٥٧/٢-٧٣٠.

(٢) قال ابن الأثير في النهاية: «يقال: الله رفيقٌ بعباده، من الرفق والرأفة، فهو: فعيل بمعنى فاعل... والرفق: لين الجانب، وهو خلاف العنف»، (ح) ٦٠٢/٢، وقال الليث: «الرفق: لين الجانب ولطافة الفعل»، (لسان العرب: ١١٨/١٠).

(٣) البخاري: ك الأدب/ ب الرفق في الأمر كله، (ح) ٦٠٢٥-٤٤٩/١٠، مسلم: ك الطهارة/ ب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات، (ح) ٢٨٤-٢٣٦/١، واللفظ له.

فالرسول ﷺ لم يُجمل في منع الصحابة الكرام عن تعنيف الأعرابي بل وضح مقصده، فقال: (لا تُزرموه) أي: لا تقطعوا عليه بوله؛ لأنّ (حبس البول يحصل لصاحبه ضرراً، فكان فيه زيادة ضرر على تنجيس المسجد بعد وقوعه، فهذا من رفقهِ ﷺ بأمتِهِ وحُسن نظره لهم)^(١).

وفي موقفٍ آخر؛ تخبر أمّ المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- فتقول: كنتُ على بعيرٍ فيه صُعبية، فجعلتُ أضربُهُ، فقال النبي ﷺ: (عليك بالرفق، فإنّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا ينزع من شيءٍ إلا شانه)^(٢)، والأمر بالرفق واضحٌ باعته، وهو عدم إيذاء هذه الدابة بالضرب.

٣- العفو والصفح:

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ [آل عمران: ١٥٩].
والتفريع في قوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ على قوله: ﴿لِنْتَ لَهُمْ﴾ الآية؛ لأنّ جميع الأفعال المأمور بها مناسب للين^(٣).

(١) طرح التثريب في شرح التقریب، للحافظ العراقي، (١٣٨/٢ - ١٣٩).

(٢) رواه مسلم: ك الأدب/ ب فضل الرفق، (ح ٢٥٩٤ - ٢٥٩٤/٤)، والبخاري في الأدب المفرد/ باب الحرق، (ح ٤٧٥ - ص ١٦٧)، واللفظ له.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٦٧/٣).

ومن أعظم المواقف التي تجلّى فيها عظيم عفوه ﷺ موقفه من أهل مكة حينما دخلها فاتحاً، فقد كانوا لا يشكّون في استئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم، نظراً لما فعلوه به وبأصحابه من الأذى والمحاربة، ولكن هل حدث ما توقّعه، وما يستحقونه؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَةَ اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنَّبَتَيْنِ، وَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَلَى الْأُخْرَى، قَالَ فَبَصُرَ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كَبْكَبَةٍ فَهْتَفَ بِي، قُلْتُ: لَبِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: (اهْتِفْ لِي بِالْأَنْصَارِ)، فَهْتَفْتُ بِهِمْ، فَطَافُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادٍ، قَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؛ إِنَّ قَرِيْشًا قَدْ جَمَعُوا لَنَا، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاحْصِدُوهُمْ حَصْدًا، حَتَّى تَوَافُونِي بِالصَّفَا، الصَّفَا مِيعَادُكُمْ)، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمَا لَقِينَا مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا فَعَلْنَا بِهِ كَذَا وَكَذَا، وَجَاءَ أَبُو سَفْيَانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أُبَحِثُ خُضْرَاءَ قَرِيْشٍ، لَا قَرِيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السَّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ)، وَلَجَأَتْ صَنَادِيدُ قَرِيْشٍ وَعِظْمَائُهَا إِلَى الْكَعْبَةِ- يَعْنِي دَخَلُوا فِيهَا-، قَالَ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى طَافَ بِالْبَيْتِ، فَجَعَلَ يَمْرُؤُكَ بِالْأَصْنَامِ فَيَطْعُنُهَا بِسِيَةِ الْقَوْسِ وَيَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ وَصَلَّى؛ جَاءَ فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابَ، ثُمَّ قَالَ: (يَا مَعْشَرَ قَرِيْشٍ؛

ما تقولون؟) قالوا: نقول: ابن أخ وابن عمّ رحيم كريم! ثم عاد عليهم القول، قالوا مثل ذلك، قال: (فإني أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 192]، فخرجوا فبايعوه على الإسلام^(١)، ويُلاحظ - هنا - أنّ قريشاً استرحمت الرسول ﷺ بالقرابة والرحم وبصفته: (رحيم).

وبالجملّة: (ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء يُؤتي إليه، حتى يُنتهك من حُرّماتِ الله، فينتقم لله)^(٢) متفق عليه.

ثانياً: تأثير الرحمة في أفعاله ﷺ:

كان ﷺ يعمل العمل ودافعهُ الرحمة بأصحابه، ويترك العمل، وهو يحبه، خوفاً أن يُفرض أو يُقتدى به فيه، فيشقّ بذلك على أمته، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، منها:

١- عن جابر بن عبد الله ؓ: أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى مكة، عام الفتح، فصام، حتى بلغ كُراع الغميم، وصام الناس معه، فقبل له: إنّ الناس قد شقّ عليهم الصيام، وإنّ الناس ينظرون فيما فعلت، فدعا بقَدَحٍ من ماء، بعد العصر،

(١) رواه النسائي في الكبرى: ك التفسير/ سورة الإسراء- قوله تعالى: (جاء الحقّ وَزَهَقَ الباطلُ...)، (ح ١١٢٩٨، ٣٨٢/٦)، وينظر: صحيح مسلم، (ح ١٧٨٠).

(٢) البخاري: ك الحدود/ ب كم التعزير والأدب، (ح ٦٨٥٣ - ١٧٤/٨)، مسلم: ك الفضائل/ مباحثه ﷺ للآثام...، (ح ٢٣٢٧، ١٨١٣/٤).

فشرب والناس ينظرون إليه، فأفطر بعضهم وصام بعضهم، فبلغه أنّ ناسًا صاموا، فقال: (أولئك العصاة)^(١).

٢- وأعظم من ذلك أنه كان يُقَصِّرُ الصلاة، ويخففها إذا سمع بكاء الصبي في المسجد؛ رحمةً به وبأمه، مع أنّ الصلاة هي قرة عينه ﷺ، وشهود النساء والأطفال للصلاة في المسجد ليس واجبًا، فعن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي؛ كراهية أن أشق على أمه)^(٢).

٣- عن أبي هريرة ﷺ: أنّ امرأة سوداء كانت تقمّ المسجد (أو شابًا)، ففقدتها رسول الله ﷺ، فسأل عنها (أو عنه)، فقالوا: مات. قال: (أفلا كنتم آذنتُموني!). قال فكانهم صغروا أمرها (أو أمره)، فقال: (دُلّوني على قبره)، فدلّوه، فصلى عليها، ثم قال: (إنّ هذه القبور مملوءةٌ ظلمةً على أهلها، وإنّ الله عزّ وجل يُنورُها لهم بصلاتي عليهم)^(٣) متفق عليه، وسؤال النبي ﷺ عن هذه المسكينة يدل على كمال تفضّله، وحسن

(١) صحيح مسلم: ك الصيام/ ب جواز الفطر في شهر رمضان للمسافر ...، (ح ٧٨٥/٢-١١١٤)، والترمذي: ك أبواب الصوم/ ب باب ما جاء في كراهية الصوم في السفر، (ح ٧١٠/٢-٨١)، واللفظ له.

(٢) صحيح البخاري: ك الأذان/ ب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، (ح ٧٠٧/٢-٢٠١).

(٣) البخاري: ك الصلاة/ ب كنس المسجد...، (ح ٤٥٨-٤٥٢/١)، مسلم: ك الجنائز/ ب الصلاة على القبر، (ح ٩٥٦-٦٥٩/٢)، واللفظ له.

تعهده، وكرم أخلاقه وتواضعه، ورأفته ورحمته، وتنبهه على أن لا يُحتقر مسلم، ولا يُصغّر أمره^(١).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: (والذي نفسي بيده! لولا أن رجلاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عتي، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده! لو ددت أتي أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل^(٢)) متفق عليه.

وقد كان هذا ظاهراً من حاله ﷺ، حتى قالت عائشة - رضي الله عنها -: (ما حَيَّرَ رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه؛ إلا أن تنتهك حرمة الله؛ فينتقم لله بها)^(٣).

ثالثًا: تأثير الرحمة في مشاعر النبي ﷺ وانفعالاته النفسية:

لم يقتصر أثر الرحمة النبوية على أخلاقه وأفعاله ﷺ فقط، بل لعمقها، وأصالتها في نفسه الكريمة، ظهر أثرها في مشاعره وانفعالاته

(١) المفهم، للقرطبي، (٦١٨/٢).

(٢) البخاري: ك الجهاد والسير/ ب تمنى الشهادة، (ح ٢٧٩٧-١٧/٤)، مسلم: ك الجهاد/ ب فضل الجهاد... (ح ١٨٧٦-١٤٩٥/٣)، واللفظ له.

(٣) البخاري: ك المناقب/ ب صفة النبي ﷺ، (ح ٣٥٦٠-١٨٩/٤)، ومسلم: ك الفضائل/ ب مباحثته ﷺ للأثام... (ح ٢٣٢٧، ١٨١٣/٤).

النفسية، وصارت تُعرف من حاله قبل فعله أو بيانه.

١- أرسلت إحدى بنات النبي ﷺ إليه: تدعوه وتحبّه أَنْ صَبِيًّا لها أو ابناً لها في الموت، فقال للرسول: (ارجع إليها، فأخبرها: أَنْ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلُّ شيءٍ عنده بأجلٍ مُسمًى، فمُرّها: فلتصبر ولتحتسب)، فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها، فقام النبي ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل... فرُفِع إليه الصبيُّ ونفسه تَقَعَقَع كأنها في سَنَّة، ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: (هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحمُ الله من عباده الرّحماء)^(١) متفق عليه.

فقوله: (هذه) أي الدمعة؛ أثر (رحمة)، أي أَنْ الذي يفيض من الدمع من حزن القلب، بغير تعمد من صاحبه ولا استدعاء، لا مؤاخذه عليه^(٢).

٢- تلاحظ أمّ المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- تغبّر حالة النبي ﷺ عند رؤية الغيم، فتقول: (كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه)، فقالت: يا رسول الله؛ إنّ الناس إذا رأوا

(١) البخاري: ك الجنائز/ب قول النبي ﷺ: (يُعَدَّب الميت ببعض بكاء أهله...)، (ح ١٢٨٤-

١٥١/٣)، مسلم: ك الجنائز/ب البكاء على الميت، (ح ٩٢٣-٦٣٥/٢)، واللفظ له.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، (١٥٧/٣).

الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية؟ فقال: (يا عائشة؛ ما يُؤمّي أن يكون فيه عذاب؟ عُدّب قومٌ بالريح، وقد رأى قومُ العذاب فقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا)^(١) متفق عليه.

٣- وفي موقفٍ عجيب؛ اجتمعت فيه مشاعر وانفعالات متعارضة، وظهر فيه أثر الرحمة النبوية في فعله وقوله ومشاعره ﷺ، وقد أحسن الصحابي الجليل جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - في وصف الموقف حتى كأننا نشاهده، حيث يقول: كتّا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قومٌ حُفاةٌ عُراةٌ مُجتابي التّمّار أو العَبَاء، مُتقلّدي السيوف، عامتهم من مُضَر، بل كلّهم من مُضَر، فتمعّر وجه رسول الله ﷺ لِمَا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً، فأذن وأقام، فصلّى، ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، والآية التي في الحشر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]، تصدّق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من

(١) البخاري: التفسير/ ب قوله: (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا...)، (ح ٤٨٢٩ - ٥٧٨/٨)، مسلم: ك صلاة الاستسقاء/ ب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، (ح ٨٩٩ - ٦١٦/٢).

صاع بُرّه، من صاع تمره- حتى قال:- ولو بشقّ تمره).

قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجزُ عنها؛ بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيتُ قومين من طعامٍ وثياب، حتى رأيتُ وجه رسول الله ﷺ يتهلّل كأنه مُذهّبة، فقال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً سَيِّئَةً؛ كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)^(١)، وشرّح مواضع الرحمة في هذا الحديث يطول، ولكن تأمل: كيف كان حاله ﷺ التي دلّت عليها تعابير وجهه الكريم، حينما دخل عليه هؤلاء، وحاله حينما استجاب المسلمون لدعوته.

٤- ومع ذلك فإنّ أحيا المشاعر وأعمقها لا تتفجر عنده في هذه المواقف العادية المألوفة فقط، بل كانت عواطفه الرقيقة تتجه نحو القيم العليا، فلقد كان لاهتمامه بنبجاة الناس، والآلام التي يحسّها حين يرى ضلالهم، كان لذلك تأثير موجه على نفسه^(٢).. قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، فهذه

(١) صحيح مسلم: ك الزكاة/ ب الحث على الصدقة ...، (ح١٠٧-٢/٧٠٤).

(٢) ينظر: دستور الأخلاق، محمد عبد الله دراز، ص (٦٠٠-٦٠١)، بتصرف يسير.

معاقبة من الله عزّ ذكره على وجده بمباعدة قومه إيّاه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله، والبراءة من الآلهة والأنداد، وكان بهم رحيمًا^(١).

ويؤيد أنّ حزنه إنما هو رحمة وشفقة - وليس بسبب إيذائهم أو نحوه - ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قالت قريشٌ للنبيّ ﷺ: ادعُ لنا ربّك أن يجعل لنا الصّفا ذهبًا ونؤمن بك. قال: (وتفعلون؟) قالوا: نعم. قال: (فدعاً، فأتاه جبريلُ فقال: إنّ ربّك عزّ وجل يقرأ عليك السلام، ويقول: إنّ شئت أصبح لهم الصّفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال: بل باب التوبة والرحمة)^(٢) رواه أحمد والحاكم.

فقد اختار ﷺ التآني بهم، مع ما فيه من زيادة التعب والمشقة عليه، إلا أنه أرجى لإسلامهم.

(١) تفسير الإمام الطبري، (١٥١/١٥).

(٢) مسند أحمد، (ح ٢١٦٦-٢٤٢/١)، المستدرک: ك التفسير/ ب تفسير سورة المائدة، (ح ٣٢٢٥-

٣٤٤/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي.



المبحث الرابع
محَبَّتُه ﷺ للرحمة وأهلها

المبحث الرابع: محبته ﷺ للرحمة وأهلها



من دلائل تأصل خلق الرحمة في نفس رسول الله ﷺ محبته أن ينتشر هذا الخلق، وسعيه ﷺ في ذلك بقوله وفعله، وكذلك محبته للمتصفين بالرحمة وثناؤه عليهم.. وتتأكد هذه الدلالة إذا استصحبنا قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ [٢] كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

والرسول ﷺ (كان خلقه القرآن)^(١)، فكل ما استحسنه وأثنى عليه ودعا إليه؛ فقد تحلّى به، وكل ما استهجنه ونهى عنه؛ تجنّبه وتخلّى عنه^(٢).

إذا فالرسول ﷺ حينما يدعو إلى الرحمة ويرغب فيها؛ فهو أول المبادرين إليها، وسأشير إلى مظهرين من مظاهر محبته ﷺ للرحمة، هما: الأول: الترغيب فيها، والثاني: محبة أهلها والثناء عليهم.

(١) صحيح مسلم: ك صلاة المسافرين/ ب جامع صلاة الليل ... (ح ٧٤٦٦ - ٥١٢/١)، ولفظه في مسلم: (فإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ)..

(٢) فيض القدير، للمناوي، (١٧٠/٥).

أولاً: الترغيب في الرحمة:

وردت نصوص كثيرة جداً في الترغيب في الرحمة، بأساليب متنوعة، وطلباً للاختصار: سأذكر نصوصاً هي كالأصول في باب (الترغيب في الرحمة)، منها:

١- عن عِيَاض بن حِمَار- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال:
(أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطانٍ مقسُطٌ متصدِّقٌ موفقٌ، ورجلٌ رحيماً رقيقُ القلب لكلِّ ذي قُربى ومسلم، وعفيفٌ متعففٌ ذو عيال)^(١).

٢- ويذكر الرسول ﷺ المؤمنين: أنّ العمل بهذا الخلق فيه مصلحة للجميع، فعن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:

(ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد؛ إذا اشتكى عضوٌ تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)^(٢) متفق عليه.
يؤب عليه الإمام ابن حبان- رحمه الله-: (ذكرُ تمثيلِ المصطفى

(١) صحيح مسلم: ك الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة... (ح ٢٨٦٥/٤، ٢١٩٧/٤).

(٢) البخاري: ك الأدب/ ب رحمة الناس والبهائم، (ح ٦٠١١-٤٣٨/١٠)، مسلم: ك البر والصلة/ ب تراحم المؤمنين... (ح ٢٥٨٦-٤/١٩٩٩).

ﷺ المؤمنين بما يجب أن يكونوا عليه من الشفقة والرأفة^(١).

٣- مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ؛ فَلْيَرْحَمْ الْخَلْقَ: فعن أسامة بن زيد- رضي الله عنه-، عن الرسول ﷺ أنه قال: (وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)^(٢) متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما-، عن النبي ﷺ أنه قال: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعته الله)^(٣).

فأتى بصيغة العموم ليشمل جميع أصناف الخلق، فيرحم البر والفاجر، والناطق والبهم، والوحوش والطيور^(٤).

ثانياً: محبته للمتصفين بالرحمة وثناؤه عليهم:

١- أبو بكر الصديق ﷺ صديق رسول الله ﷺ قبل البعثة، وأحب الناس إليه وأقربهم منه بعد البعثة، ويشبه أن يكون من أسباب ذلك مشابهته للنبي ﷺ في أخلاقه،

(١) صحيح ابن حبان، (ح ٢٣٣-٤٦٩/١).

(٢) تقدم تخريجه، ص ٢٨.

(٣) أبو داود: ك الأدب/ ب في الرحمة، (ح ٤٩٤٣-٤٤٠/٤)، الترمذي: ك البر والصلة/ ب رحمة

المسلمين، (ح ١٩٢٤-٣٢٣/٤) وقال: حسن صحيح. واللفظ له

(٤) تحفة الأحوذى، للمباركفوري، نقلًا عن الإمام الطيبي، (٤٣/٦).

(خرج أبو بكر مهاجرًا نحو الحبشة، حتى إذا بلغ بركَ العِمَاد لقيه ابنُ الدَّعْنَةِ، وهو سيّد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربّي. قال ابن الدَّعْنَةِ: فإنّ مثلك لا يخرج ولا يُخرج؛ إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحقّ، وأنا لك جارٌ، فارجع فاعبد ربك ببلدك)^(١).

وما قاله ابن الدَّعْنَةِ في أبي بكر الصديق هو ما وصفت به خديجة- رضي الله عنها- رسولَ الله ﷺ^(٢)، (والأرواحُ جنودٌ مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)^(٣).

وقد أثنى الرسول ﷺ على أبي بكر فقال: (أرحمُ أمّتي بأمتي أبو بكر)^(٤).

٢- يخطب الرسول ﷺ ابنة عمّه أم هانئ بنت أبي طالب- رضي الله عنها-، وهذا شرفٌ تتمّاه كلّ امرأة، فبماذا أجابت؟:

(١) صحيح البخاري: ك مناقب الأنصار/ ب هجرة النبي ﷺ، (ح ٣٩٠٥-٢٣٠/٧).

(٢) تقدم، في ص ١٩.

(٣) صحيح مسلم: ك البر والصلة/ ب الأرواح جنود مجنّدة، (ح ٢٦٣٨-٢٠٣١/٤).

(٤) الترمذي ك المناقب/ ب مناقب معاذ بن جبل...، (ح ٣٧٩١، ٦٦٥/٥)، وقال: حسن صحيح.

وابن ماجه: المقدمة/ ب فضائل خباب، (ح ١٥٤).

قالت: يا رسول الله؛ إني قد كبرتُ، ولي عيال^(١).

عندئذ قال رسول الله ﷺ: (خيرُ نساءِ ركنِ الإبلِ نساءُ قريشِ، أحناهُ عليٌ وليدٌ في صِغَرِهِ، وأرعاه عليٌ زوجٌ في ذاتِ يده)^(٢).

٣- عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الأشعريين إذا أرمَلوا في الغزو، أو قَلَّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسَّويَّةِ، فهُم مِنِّي وأنا منهم)^(٣) متفق عليه.

٤- ومن محبته ﷺ للرحماء أنه يقربهم منه في الآخرة، فعن سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)، وقال بإصبعيه السبابة والوسطى^(٤).

وذلك لما فيه من حُسنِ الخلافة للأبوين، ورحمة الصغير، وذلك مقصودٌ عظيمٌ في الشريعة^(٥).

(١) في رواية عند ابن سعد في الطبقات (١٥١/٨): (ولكني امرأةٌ مُصِيبَةٌ، وأكره أن يؤذوك)، ويفهم من النص الأول: أنها خشيت أن تقصُر في حقِّ أطفالها.

(٢) صحيح مسلم: ك فضائل الصحابة.../ ب من فضائل نساء قريش، (ح ٢٥٢٧، ٤/١٩٥٨).

(٣) البخاري: ك الشركة/ ب الشركة في الطعام والنهد والعرض، (ح ٢٤٨٦-١٢٨/٥)، مسلم: ك فضائل الصحابة.../ ب من فضائل الأشعريين، (ح ٢٥٠٠، ٤/١٩٤٤).

(٤) صحيح البخاري: ك الأدب/ ب فضل من يعول يتيمًا، (ح ٦٠٠٥-٤٣٦/١٠)، من حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه.

(٥) فيض القدير، للمناوي، (٤٩/٣).



المبحث الخامس

تأثير رحمته ﷺ في الآخرين

المبحث الخامس: تأثير رحمته ﷺ في الآخرين



ما خرج من القلب وصل إلى القلب^(١)، هذه الحكمة تُغني عن الإطالة في بيان قوة تأثير الشيء حينما يكون صادرًا عن طبيعة وجبلة بلا تكلف أو ادعاء.

ولأنَّ خلق الرحمة قد ملأ قلب النبي ﷺ؛ فقد بلغ تأثيره في الآخرين مبلغًا كبيرًا، ومن أعظم مظاهر ذلك التأثير محبتهم للنبي ﷺ، واجتماعهم عليه، وطاعتهم له، كما قال المولى سبحانه: ﴿فَمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وفي كتب السنّة، وسير الصحابة الكرام- رضوان الله تعالى عليهم-، أمثلة كثيرة، وصور متنوعة، لتأثير رحمته ﷺ. سأكتفي بنماذج تتعلق بأحد أنواع التأثير، وهو: العمل بخلق الرحمة وانتشارها، ومنها:

١- الاستجابة والتفاعل الإيجابي مع الرحمة النبوية:

يقول أبو مسعود البدري ﷺ: (كنتُ أضرب غلامًا لي بالسوط،

(١) ينظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم، (٣٥١/٢)، وابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، (٨/٢).

فسمعتُ صوتًا من خلفي: (اعلم أبا مسعود!) ، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال فلما دنا منِّي إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: (اعلم أبا مسعود! اعلم أبا مسعود!)، قال: فألقيتُ السوط من يدي، فقال: (اعلم أبا مسعود؛ أنّ الله أقدّرُ عليك منك على هذا الغلام).

ولما سمع أبو مسعود تذكير رسول الله ﷺ، ويشبه أن يكون في نبرة صوته وتعابير وجهه ما يدلّ على عظيم الشفقة والرحمة، لم يكتف بإيقاف الضرب، بل رأى أنّ الأمر يستحق أكبر من ذلك، فقال: (لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا. وقال: يا رسول الله؛ هو حرٌّ لوجه الله).

وهذا ما كان سيأمره به الرسول ﷺ إذ قال: (أما لو لم تفعل لَلْفَحْتِكَ التَّارَ) أو: (لمستك التار)^(١)؛ فقد كان الحال أسرع من المقال.

قال النبي ﷺ لأبي الهيثم بن التيهان: (هل لك خادم؟) قال رضي الله عنه: لا، قال: (فإذا أتانا سبي فأتنا)، فأتي النبي ﷺ برأسين ليس معهما ثالث، فأتاه أبو الهيثم، فقال النبي ﷺ: (اختر منهما)، فقال: يا نبيّ الله؛ اختر لي! فقال النبي ﷺ: (إنّ المستشار مؤتمن، خذ هذا؛ فإني رأيته يصلي، واستوص به معروفًا).

(١) صحيح مسلم: ك الأيمان/ ب صحبة المماليك ...، (ح ١٦٥٩، ٣/١٢٨٠).

فكيف طبّق أبو الهيثم ﷺ هذه الوصية؟

يقول الراوي: فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته، فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت امرأته: ما أنت ببالح ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن تعتقه! قال: فهو عتيق؟^(١) فقال النبي: (إنّ الله لم يبعث نبياً ولا خليفةً إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهيه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومن يوق بطانة السوء فقد وُقِيَ)^(٢). فافتنع بكلامها- رضي الله عنها- وأعتقه، وذلك إمّا لأنهما خشياً أن يقصّر (أبو الهيثم) في تطبيق الوصية، وإمّا لأنهما رأيا من حال الغلام- في دينه أو بدنه- ما فهما منه أنّ المعروف الذي يستحقه هو العتق، خاصة أنّ أبا الهيثم طلب من الرسول ﷺ أن يختار له، ثم إنّ رسول الله ﷺ لم يُنكر عليهما ما فعلا.

٢- وفي تطبيق معاني الرحمة التي أمر بها النبي ﷺ:

عن معاوية بن سويد قال: لطمتُ مولياً لنا فهربت، ثم جئتُ قُبيل الظهر فصليت خلف أبي، فدعاه ودعاني، ثم قال امتثل منه، فعفا، ثم قال (أي سويد بن مُقرن): كُنّا بني مُقرن على عهد رسول

(١) في رواية عند الطحاوي في شرح مشكل الآثار (ح ٤٧٢-٤٠٩/١): (فانطلق به أبو الهيثم، فلما أتى أهله قال: إنّ النبي ﷺ قد أوصاني بك خيراً؛ فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى).

(٢) سنن الترمذي: ك الزهد/ ب معيشة أصحاب النبي ﷺ ، (ح ٢٣٩٦-٤-٥٨٣)، وقال: حسن صحيح غريب.

اللَّهُ ﷺ ليس لنا إلا خادمٌ واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (أَعْتَقُوهَا) قالوا: ليس لهم خادمٌ غيرها! قال ﷺ: فليستخدموها؛ فإذا استغنوا عنها فليخلوها سبيلها^(١).

٣- وفي الاقتداء بالرسول ﷺ في رحمته ورفقه:

- عن الأزرق بن قيس قال: كنا على شاطئ نهرٍ بالأهواز، قد نضب عنه الماء، فجاء أبو بَرَزَةَ الأَسلمي - رضي الله عنه - على فرس، فصلّى وخطّى فرسه، فانطلقت الفرس، فترك صلاته وتبعها حتى أدركها فأخذها، ثم جاء ففقد صلاته، وفيما رجلٌ له رأي، فأقبل يقول: انظروا إلى هذا الشيخ! ترك صلاته من أجل فرس! فأقبل فقال: ما عتفني أحدٌ منذ فارقتُ رسولَ الله ﷺ، وقال: إنّ منزلي مُتراخ، فلو صليتُ وتركتُهُ لم آت أهلي إلى الليل، وذكر: أنه قد صحبَ النبي ﷺ فرأى من تيسيره^(٢).

- عن أبي وائل قال: كان عبد الله بن مسعود ؓ يذكر الناس في كلّ خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن؛ لوددتُ أنك ذكرتنا كلّ يوم! قال عبد الله: (أما إنه يمني من ذلك أني أكره أن أملككم، وإني

(١) صحيح مسلم: ك الأيمان/ ب صحبة المماليك ...، (ح ١٦٥٨ - ١٢٧٩/٣).

(٢) صحيح البخاري: ك الأدب/ ب قول النبي ﷺ: (يسروا ...)، (ح ٦١٢٧ - ٥٢٥/١٠).

أَتَخَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ كَمَا كَانَ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا^(١) متفق عليه.

- هذا مثال من طريقة عبد الله بن مسعود ﷺ التي وصفها حَبَّةُ بن جُوَيْنِ العرني لعلِّي بن أبي طالب- رضي الله عنه-، حيث يقول: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عَلِيٍّ، فَذَكَرْنَا بَعْضَ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَثْنَى الْقَوْمَ عَلَيْهِ، فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا أَحْسَنَ خُلُقًا، وَلَا أَرْفَقَ تَعْلِيمًا، وَلَا أَشَدَّ وَرَعًا، وَلَا أَحْسَنَ مَجَالِسَةً مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ)^(٢).

- خرج عدي بن حاتم ﷺ إلى مجلس قومه، فأقيمت الصلاة، فتقدّم إمامهم، فأطال الصلاة والجلوس، فلما انصرف قال عدي: مَنْ أَمَّنَا مِنْكُمْ فَلْيُتَمِّمِ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ؛ فَإِنَّ خَلْفَهُ الصَّغِيرَ وَالكَبِيرَ وَالْمَرِيضَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَذَا الْحَاجَةِ. فلما حضرت الصلاة تقدّم عديّ فأتم الركوع والسجود، وتجوّز في الصلاة، فلما انصرف قال: (هكذا كُنَّا نَصَلِّيَ خَلْفَ النَّبِيِّ)^(٣).

- عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمك الله! فرماني

(١) البخاري: ك العلم/ ب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، وباب: من جعل لأهل العلم أيامًا...، (ح٦٨، و٧٠-١٦٢/١)، مسلم: ك صفات المنافقين/ ب الاقتصاد في الموعظة، (ح٢٨٢١-٤-٢١٧٢/٤)، (يتخولنا بها): يتعهدنا مراعيًا أوقات نشاطنا.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، (٥٢٢/٧- برقم: ١٧).

(٣) المعجم الكبير، للطبراني، (ح٢٢٢-٩٣/١٧).

القوم بأبصارهم، فقلت وَأَكْثَلَ أُمَّيَاهُ؛ ما شأنكم تنظرون إلي؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلَمَّا رَأَيْتَهُمْ يُصَمَّتُونِي لَكِنِّي سَكَتُ.

ولما سلّم من الصلاة تَوَقَّعَ أَنْ يَأْتِيَهُ تَعْنِيفٌ أَوْ نَحْوَهُ، وَلَكِنْ حَصَلَ خِلَافٌ ذَلِكَ، حَيْثُ يَقُولُ:

فَلَمَّا صَلَّى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي! مَا رَأَيْتُ مَعْلَمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: (إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ)^(١).

- ولقد أثار رفق النبي ﷺ في نفس معاوية بن الحكم - كما يدل عليه كلامه السابق -، وفي معاملته لغيره، إذ حصل في مرّة أن غضب على جارية له فضربها، وشعر عند ذلك أنّ هذا خلاف ما تعلّمه من الرسول ﷺ، فسارع يستشيريه في إصلاح ما بدر منه، فيقول:

كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرَعَى غَنَمًا لِي قَبْلَ أَحَدِ الْجَوَانِيَةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الدِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، أَسْفُ كَمَا يَأْسِفُونَ، لَكِنِّي صَكَّكْتُهَا صَكَّةً، فَاتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَعَظَّمْ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَفَلَا أُعْتَقُهَا؟

(١) صحيح مسلم: ك المساجد ومواضع الصلاة/ ب تحريم الكلام في الصلاة... (ح ٥٣٧ - ٣٨١/١).

قال: (اتّني بها)، فأتيته بها.

فقال لها: (أين الله؟).

قالت: في السماء.

قال: (مَن أنا؟).

قالت: أنت رسولُ الله.

قال: (أعتقها؛ فإنها مؤمنة)^(١).

- عن أبي إسحاق السبيعي، قال: كان جرير بن عبد الله ﷺ في بعثِ بأرمينية، قال: فأصابتهم مخمصة، أو مجاعة، قال: فكتب جريرٌ إلى معاوية: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (مَن لم يرحم الناسَ لا يرحمه اللهُ عز وجل)، قال: فأرسل إليه، فأتاه، فقال: أنت سمعته من رسولِ الله ﷺ. قال: نعم! قال: فأقفلهم ومتّهم^(٢).

إنّ هذه الأمثلة والشواهد.. تُبيّن شيئاً يسيراً من النجاح الذي حقّقه الرسول ﷺ، بقوله وعمله، في نشر خلق الرحمة وتعميقه في مجتمع الصحابة الكرام- رضوان الله تعالى عليهم-، النجاح الذي أخبر عنه المولى سبحانه فقال:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

(١) صحيح مسلم: الموضع السابق نفسه.

(٢) مسند الإمام أحمد، (ح٤-١٩١٩-٣٦١/٤)، والمعنى: أنه أمرهم بالعودة إلى ديارهم، وزادهم أن أهداهم من المتاع.

تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
 وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ
 كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ
 الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 مِنْهُمْ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿[الفتح: ٢٩].

* * *

الخاتمة

الحمدُ لله ربّ العالمين الذي جعلنا من هذه الأمة المرحومة،
وامتنّ علينا بنبيّ الرحمة ﷺ.

وبعد هذه الإطلالة المختصرة والمتعة، على بعض أحوال الرسول
ﷺ وأعماله.. أختتم هذا البحث بذكر أبرز النتائج والتوصيات، وهي:

١- أنّ الرسول ﷺ مفطورٌ على الرحمة، وهي خُلِقَ، بدلالة القرآن،
والتزامه بها، وظهورها في تصرفاته، وتأثيرها في الآخرين.

٢- أنّ الله تعالى أشاد برحمة الرسول ﷺ وامتنّ بها؛ وبين أثرها؛ ولذا
فبيان هذه الرحمة والحديث عنها أمرٌ مهم، سواء للمسلمين-
للاقتداء والمحبة-، وللكفار.. دعوةً وإعذاراً.

٣- تأثير اتصاف الرسول ﷺ بالرحمة موضوعٌ يستحق العناية
والإبراز؛ إذ له علاقة بالسيرة والدفاع عن الرسول ﷺ، والدعوة
لخلق الرحمة، ومحبة الصحابة الكرام- رضوان الله عليهم-.

٤- التجديد في عرض السيرة النبوية ووقائعها؛ من خلال التعريف
بشخصية الرسول ﷺ وأخلاقه وأعماله؛ وإبراز جوانب التميّز
والعظمة والتأثير فيها، وعدم الاقتصار على السرد التاريخي فقط،

تقويةً للمحبّة؛ وتحفيزًا على الاقتداء.

٥- أنّ اتصاف الإنسان بالرحمة من أقوى وسائل التأثير في الآخرين؛
فحري بأهل العلم والدعوة، أن يقتدوا بالرسول ﷺ في العمل
والتعامل بالرحمة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

قائمة المراجع

- ❁ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، علاء الدين بن بلبان الفارسي (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق وتخرّيج: شعيب الأرنؤوط، الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ❁ الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم - دمشق، الطبعة السابعة، ١٤٢٩هـ.
- ❁ أدب الدنيا والدين، الإمام أبي الحسن محمد بن حبيب الماوردي - شرح وتعليق محمد كريم راجح - دار اقرأ - بيروت - الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.
- ❁ الأدب المفرد، الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
- ❁ أساس البلاغة، أبو القاسم جارالله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تحقيق محمد باسل السواد - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤١٩هـ.
- ❁ إكمال المعلم بفوائد مسلم، الإمام عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
- ❁ التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور - محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي - مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ.
- ❁ تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ❁ التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥.
- ❁ تفسير الطبري = جامع البيان.
- ❁ تفسير القرآن العظيم، الإمام إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ١٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي السلامة، دار طيبة الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٨٧م.
- ❁ تفسير القرآن العظيم مسنداً، الإمام عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم (٣٢٧هـ) تحقيق: أسعد محمد طيب، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ❁ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - تحقيق د. عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤٢٠هـ.
- ❁ جامع بيان العلم وفضله، الإمام يوسف ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، دار الكتب الإسلامية، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
- ❁ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الإمام محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق د. عبد الله التركي، دار هجر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
- ❁ الجامع الصحيح المسند من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، الإمام محمد بن إسماعيل البخاري= فتح الباري.
- ❁ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ❁ دستور الأخلاق في القرآن- محمد عبد الله دراز، تعريب وتحقيق د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار البحوث العلمية.
- ❁ سنن ابن ماجة، محمد بن زيد (ت ٢٧٥هـ)، صححه ورقمه: محمد فؤاد عبد

- الباقى، دار إحياء التراث العربية، دون تاريخ.
- ❁ سنن أبي داود، سليمان الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، إعداد: عزت الدعاس وعادل السيد، دار الحديث، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٩م.
- ❁ سنن الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٩٧هـ)، تحقيق: أحمد شاکر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.
- ❁ السنن الكبرى، الإمام أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ) تحقيق: د. عبد الغفار البنداري، وسيد كسرواي دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ❁ سنن النسائي، أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ)، مع شرح السيوطي وحاشية السندي، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- ❁ شرح مشكل الآثار، الإمام أحمد بن محمد الطحاوي (ت ٣٢١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ❁ شعب الإيمان، الإمام أحمد الحسن البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ❁ صحيح ابن حبان = الإحسان.
- ❁ صحيح البخاري = الجامع الصحيح.
- ❁ صحيح مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دون تاريخ.
- ❁ الطبقات الكبرى، الإمام محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) دار الفكر، دون تاريخ.
- ❁ طرح التثريب في شرح التقريب، الإمام أبي الفضل عبد الرحيم العراقي (ت

- ❁ (هـ) ٨٠٦هـ) وابنه أبي زرعة (٨٢٦هـ) دار إحياء التراث - بيروت).
- ❁ فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري، الحافظ أحمد بن علي ابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ.
- ❁ فيض القدير شرح الجامع الصغير، المحدث عبد الروؤف المناوي (ت ١٠٣١هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دون تاريخ.
- ❁ لسان العرب، الإمام محمد بن منظور المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- ❁ المخصص، لأبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ❁ المستدرك على الصحيحين، الإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) دار المعرفة، بيروت، طبعة مذيبة بتلخيص الذهبي.
- ❁ المسند، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، طبعة المكتبة الإسلامية، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ❁ المصنف في الأحاديث والآثار، الإمام عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ❁ المعجم الكبير للطبراني، أحمد بن سليمان (ت ٣٦٥هـ)، تحقيق: حمدي السلفي، الطبعة الثانية، دون تاريخ.
- ❁ معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، الطبعة: ١٣٩٩هـ.
- ❁ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- ❁ المفهم لما أشكل من صحيح مسلم، الإمام أبي العباس الحسن بن عمر

القرطبي (ت ٦٥٦هـ) تحقيق: محيي الدين مستو، وآخرون، دار ابن كثير
والكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

❁ النهاية في غريب الحديث والأثر، الإمام أبي السعادات المبارك بن محمد
الجزري (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي- محمود محمد الطناحي،
المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ.

الفهرس

المقدمة	٣
تمهيد: في معنى الرحمة	٧
المبحث الأول: طبيعة رسالته ومهمته ﷺ	١١
المبحث الثاني: التزام النبي ﷺ بخلق الرحمة في أحواله كلها	١٩
المبحث الثالث: تأثير الرحمة في أخلاقه وأفعاله ومشاعره ﷺ	٢٧
المبحث الرابع: محبته ﷺ للرحمة وأهلها	٤١
المبحث الخامس: تأثير رحمته ﷺ في الآخرين	٤٩
الخاتمة	٥٧
قائمة المراجع	٥٩
الفهرس	٦٤

